مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[3].

---

(١) سورة: آل عمران الآية: ١٠٢.

(٢) سورة: النساء الآية: ١.

(٣) سورة: الأحزاب الآيتان: ٧٠، ٧١.

أما بعد،،

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[1].

أما بعد..

لقد كثرت الفتن وتعددت بشكل واسع وكبير، وابتدع في هذه الأمة بدعة أبعدت الناس عن دين ربهم وهي الاحتكام إلى القوانين الوضعية والإعراض عن حكم الله وترك شرعته التي ارتضاها الله للناس حتى صار البعد عن شرع الله وعدم الاحتكام إليه سمة كثير من بلاد المسلمين.

منذ نشأة الإسلام وحتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري كانت الشريعة الإسلامية هي القانون الوحيد الذي يتحاكم إليه ويقضي به في الديار الإسلامية، وقد كان بعض المسلمين يتهاونون في تطبيق بعض الأحكام الشرعية، وقد يحكم بعض الحكام بالهوى؛ ولكن لم يحدث أن اتخذ المسلمون قانونًا لهم غير الشريعة الإسلامية في تاريخها، وقد حاول بعض أعداء

(١) هذه المقدمة تسمى خطبة الحاجة، أخرجها أحمد (١/ ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٣٢) وأخرجها أصحاب السنن وغيرهم.

الإسلام أن يطبقوا قانونهم الكافر على المسلمين في بعض الأزمنة التي هزم فيها المسلمون ولكنهم لم ينجحوا، وبقيت الشريعة الإسلامية هي المهيمنة والحاكمة، وبعد منتصف القرن الثالث عشر الهجري بدأت القوانين الوضعية تتحكم في رقاب المسلمين بعد أن تم إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحكم[1].

وإني لأعجب لماذا بعد المسلمون عن شريعة ربهم واحتكموا إلى غيرها من القوانين التي وضعها لهم بشر من لوازم بشريتهم الخطأ والنسيان والزلل والنقصان؟ !!

لماذا تركوا شرع الله الذي هو أحسن حكمًا، وأقوم نهجًا من غيره ؟ أليس هذا هو شرع من يعلم أحوال عباده ؟ ! الخبير بجميع شئونهم في الحال والمآل ؟!

إن شريعة الله تعالى هي أحسن الشرائع، ولا يستطيع أحدٌ - مهما أوتي من العلم - أن يحصي ما في شريعة الله من محاسن ومزايا وخصائص فضلت بها عن غيرها.

وفي هذه العجالة أحاول جاهدًا ما استطعت أن أبين ما في هذه الشريعة من محاسن من خلال النصوص الواردة في ذلك متأملًا

---

(١) انظر: الشريعة الإلهية لا القوانين الوضعية للدكتور عمر سليمان الأشقر ص(٥١).

بعض الشرائع وما قاله العلماء في مزاياها ومحاسنها.

والله أسأل أن يتقبل مني هذا العمل ويثقل به ميزاني يوم العرض إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

رحمة النبي ﷺ بالأمة، وشفقته عليها

أرسل الله تعالى نبيه الكريم محمد ﷺ رحمة للعالمين جميعا مؤمنهم وكافرهم يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[1].

قال الطبري في تفسيره: «إِنَّ اللهَ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَحْمَةً لِجَمِيعِ الْعَالَمِ، مُؤْمِنِهِمْ، وَكَافِرِهِمْ. فَأَمَّا مُؤْمِنُهُمْ فَإِنَّ اللهَ هَدَاهُ بِهِ، وَأَدْخَلَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَبِالْعَمَلِ بِمَا جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْجَنَّةَ. وَأَمَّا كَافِرُهُمْ فَإِنَّهُ دَفَعَ بِهِ عَنْهُ عَاجِلَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ بِالْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ رُسُلَهَا مِنْ قَبْلِهِ»[2].

ومن رحمة النبي ﷺ بالناس أنه كان ﷺ يحزن ويأسف لإعراض قومه عن دعوته، شفقة بهم، وخوفًا عليهم من غضب الله وعذابه، وقد بلغ هذا الحزن وهذا الأسف بالنبي ﷺ إلى حد قال الله تعالى له فيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ٦﴾[3]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا

---

(١) سورة: الأنبياء الآية: ١٠٧.

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن للإمام الطبري (١٦/ ٤٤١)

(٣) سورة: الكهف الآية: ٦.

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾[1]، قال الطبري: يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِذَلِكَ: فَلَعَلَّكَ يَا مُحَمَّدُ قَاتِلٌ نَفْسَكَ وَمُهْلِكُهَا عَلَى آثَارِ قَوْمِكَ الَّذِينَ قَالُوا لَكَ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[2] تَمَرُّدًا مِنْهُمْ عَلَى رَبِّهِمْ، إِنْ هُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلْتُهُ عَلَيْكَ فَيُصَدِّقُوا بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ حُزْنًا وَتَلَهُّفًا وَوَجْدًا، بِإِدْبَارِهِمْ عَنْكَ، وَإِعْرَاضِهِمْ عَمَّا أَتَيْتَهُمْ بِهِ وَتَرْكِهِمُ الْإِيمَانَ بِكَ[3].

وقال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[4]، وهذه الآيات وغيرها تبين رحمة النبي ﷺ بأمته وأنه كما وصف الله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[5]، وهذا واضح في سيرته ﷺ.

فكان ﷺ مشفق على قومه مما هم فيه من ضلال، حريص على إيمانهم بل كان يدعو لهم لعل الله تعالى أن يكتب لهم الهداية، ومع ما رآه منهم، كان يضرب لنفسه مثلا في إشفاقه

(١) سورة: الشعراء الآية: ٣.
(٢) سورة: الإسراء الآية: ٩٠.
(٣) جامع البيان: (١٥/١٤٩).
(٤) سورة: فاطر الآية: ٨.
(٥) سورة: التوبة الآية: ١٢٨.

عليهم، فعن أبي موسى ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ»[1].

ففي هذا الحديث ضرب النبي ﷺ المثل لأمته لأنه تجرد لإنذارهم.

ومن شفقته أنه رأى أمرًا كونيًّا خاف أن يكون عذابًا أريد بالأمة، فعَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ، تَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ سُرِّيَ عَنْهُ ذَلِكَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي»، وَيَقُولُ، إِذَا رَأَى الْمَطَرَ: «رَحْمَةٌ»[2].

ولم تكن شفقته عليهم من عذاب الدنيا فقط، بل كان يبكي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٢): كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ الانْتِهَاءِ عَنِ المَعَاصِي، وأخرجه مسلم (٢٢٨٣): كتاب الفَضَائِلِ، بَابُ شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَمُبَالَغَتِهِ فِي تَحْذِيرِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٩٩): كِتَابُ صَلَاةِ الِاسْتِسْقَاءِ، بَابُ التَّعَوُّذِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، وَالْفَرَحِ بِالْمَطَرِ.

شفقة على أمته من عذاب الله في الآخرة، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْلَةً فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ، تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا قَالَ: «إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي الشَّفَاعَةَ لِأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ لِمَنْ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[2].

ومن شفقته أنه ادخر دعوته لأمته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3].

وينبغي أن يكون حال الدعاة إلى الله عز وجل من الشفقة على الناس كحال النبي ﷺ، فالداعي إلى الله عز وجل كلما أخلص في دعوته وأدرك قيمتها وجمال أثرها، وما فيها من الخير

---

(١) سورة: المائدة الآية: ١١٨.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٦ و١٧٧) والنسائي (١/ ١٥٦ - ١٥٧)، وابن ماجه (١/ ٤٠٧)، والطحاوي (١/ ٢٠٥)، وصححه الألباني لشواهده في (أصل صفة الصلاة) (٢/ ٥٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٠٤): كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابٌ: لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، ومسلم (١٩٨): كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ اخْتِبَاءِ النَّبِيِّ ﷺ دَعْوَةَ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ.

ورأى الناس يعرضون عنها ويعرضون أنفسهم لسخط الله عز وجل يزداد همًّا وغمًّا وحزنًا، وحرصًا على نفعهم وشفقة بهم.

❁ ❁ ❁